﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾

[الحجر: 29]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَسْويةُ خلْقِ آدمَ ونفخُ الرّوحِ فيه مَناطُ رِفعتِه وعُلوِّ شأنِه

لمّا بيَّن اللّه تعالى للملائكة ما يريدُ أن يفعلَ من خلْقِ آدمَ وبيّن مادَّة خلْقِه ذكرَ سببَ تشريفِه بأمرِهم بالسّجودِ له(1).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾: أصْلُ (سوي): يَدُلُّ على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ. يُقالُ هذا لا يُساوي كذا، أي لا يُعادِلُهُ(2). والتَّسْوِيَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ. وتأْتي بمعنى العَدْلِ والإنْصافِ، فيُقال: سَوَّيْتُ بين الشَّيْئَيْنِ: إذا عَدَلت بَيْنَهُما(3)، وهي أيضًا: تَقْويمُ الشَّيءِ وتَعْديلُهُ، تَقولُ: سَوَّيْتُ الشَّيْءَ فاسْتَوى، أيْ: قَوَّمتُهُ فاسْتَقامَ(4). والسَّويُّ يُقالُ فيما يُصانُ عنِ الإفراط والتَّفريط من حيث القَدْرُ والكيفيَّةُ، ورَجُلٌ سَويٌّ: استوت أخلاقُه وخِلْقتُه عنِ الإفراط والتَّفريط. والمقصود بالتَّسوية في الآية: تَعْديلُ ذاتِ الشَّيْءِ. وقد أُطْلِقَتْ هنا على اعتدالِ العَناصِرِ فيهِ واكتِمالِها بحيثُ صارَتْ قابِلَةً لنَفْخِ الرّوحِ(5).

2) ﴿وَنَفَخْتُ﴾: أصْلُ الكلِمَةِ يَدُلُّ على انْتِفاخٍ وعُلوٍّ. النَّفْخُ: إخْراجُ الرّيحِ مِنَ الفَمِ، يُقالُ: نَفَخَ بِفَمِه، يَنْفُخُ، نَفْخًا: إذا أخرَجَ منه الرّيحَ، ويكونُ ذلك في الاستِراحَةِ والمُعالَجَةِ ونَحوِهما، ونفَخَ النّارَ بالمِنْفاخ: هَيَّجَها وأذْكاها بريحِه، والمِنْفَخُ والمِنْفاخُ: آلَتُهُ، وهو ما يُنْفَخُ به، ومن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/419.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوا).
(4) الجوهري، الصحاح: (عدل).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

معاني النَّفْخ: الفَخْرُ والكِبْرُ[1]. واسْتُعير في الآية لِوضْع قوَّةٍ لَطيفَةِ السَّرَيانِ قَويَّةِ التَّأْثيرِ دُفْعَةً واحِدَةً، ولَيْسَ ثَمَّةَ نَفْخٌ ولا مَنْفوخٌ[2].

3) ﴿فَقَعُواْ﴾: (وقع): أَصْلٌ واحِدٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فُروعُهُ، يَدُلُّ عَلَى سُقوطِ شَيْءٍ. يُقالُ: وقَعَ الشَّيْءُ وُقوعًا فَهو واقِعٌ[3]. والواقِعَةُ لا تُقالُ إلّا في الشِّدَّة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وقَعَ) جاء في العذاب والشَّدائدِ، نحو: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة: 1 - 2]، ووُقوعُ القَولِ: حصولُ مُتضمَّنه، ووقَعَ المطرُ: سقط، ومَواقِعُ الغيثِ: مَساقِطُهُ، والمواقَعَةُ في الحربِ، ويُكنَّى بالمواقَعَةِ عنِ الجماعِ، والإيقاعُ يُقالُ في الإسقاط، وفي شنِّ الحرب بالوقْعَة. ووقْعُ الحديدِ: صوتُهُ[4]. وتَوقَّعْتُ الشَّيْءَ: انْتَظَرْتُهُ متى يَقَعُ. والمقصودُ بالوقوع في الآية: السُّقوطُ لقَصْدِ التَّعظيمِ، أي: اسْقُطوا له ساجِدينَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأصلُ الإنسانيُّ مُكرَّمٌ عندَ الله تعالى

أخبَرَ اللّه تعالى ملائكتَه الكرامَ أنَّه إذا أكمَلْتُ خَلْقَ آدمَ، وصَوَّرْتُه، وصارَ جسدًا تامًّا في غايةِ الإتقانِ، ونفخْتُ فيه الرّوحَ الَّتي هي مِن خَلْقي، فصار بشرًا حَيًّا؛ فخِرّوا له ساجِدينَ؛ سجودَ التَّحيَّةِ والتَّكريم، لا سجودَ العِبادة، وهو أمرٌ واجبٌ بالسُّجود[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الفاءِ في ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾:

تسويةُ خلْقِ آدمَ مُرتَّبَةٌ على خلْقِه من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ

الفاءُ تفيدُ السّببيّةَ والتَّعقيبَ[6]، بمعنى أنَّ التّسويةَ مُسبَّبةٌ عن خَلْقِ الصّلصالِ من حمأٍ مسنونٍ وأنَّ التّسويةَ أعقبَتْه.

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (نفخ).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقع).
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وقع).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/65، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/360، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/476، 477، والزحيلي، التفسير المنير: 23/231.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/147.

نُكتةُ التّعبيرِ بـ﴿فَإِذَا﴾:

تَسويةُ خلْقِ آدمَ أمرٌ واقعٌ مُحقّقٌ لا محالةَ

عُبِّرَ بأداة الشّرطِ (إذا) للإيذانِ بأنَّ الشّرطَ المُقترنَ بها وهو تسويةُ خلْقِ آدمَ وتعديلُ أعضائِه وهيئتِه أمرٌ مقطوعٌ بحصولِه وأنَّه واقعٌ مُحقّقٌ لا محالةَ، فهو بمثابةِ التّأكيدِ والبيانِ لقولِه: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا﴾.

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قوله ﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾:

الدّلالةُ على الجَزمِ بتحقُّقِ الوقوعِ

في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، لمّا كانت (إذا) تفيدُ الجزْمَ بوقوعِ الشّرطِ جاء الفعلُ معها بصيغةِ الماضي؛ لكوْنِه أدلَّ على الوقوعِ باعتبارِ لفْظِه، فكأنَّه قد حصلَ ووقعَ لقوَّة الجزْمِ بوقوعِه[1].

دَلالةُ لفْظِ ﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾:

لا إفراطَ ولا تفريطَ في خلْقِ اللهِ البَشرَ وإتمامِ أعضائِه وصورَتِه

التّسويةُ تَعْديلُ ذاتِ الشَّيْءِ بحيث يُصانُ عنِ الإفراطِ والتَّفريطِ من حيث القدرُ والكيفيّةُ، وأفاد الفعلُ المنسوبُ إلى اللّه تعالى على معنى التّشريفِ أنَّه تعالى قد جعل الأعضاءَ فيه سليمةً مُسوّاةً مُعَدَّةً لمنافعِها واعْتِدالِ العَناصِرِ فيهِ واكْتِمالِها على هيئة الصّورةِ البشريَّة، أي سويّتُه بنفسي تكريمًا منّي له بإتْمامِ خلْقتِه بِحَيْثُ صارَتْ قابِلَةً لِنَفْخِ الرّوحِ فيها[2].

دَلالةُ الضّميرِ في قوله ﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾:

بَديعُ صُنعِ اللهِ في تحويلِ الصّلصالِ إلى صورةِ البشرِ البهيّةِ الجميلةِ

يعودُ الضّميرُ على لفْظِ ﴿بَشَرٗا﴾ بما اتّصفَ به، أي فإذا سوّيتُ الذي خلقْتُه من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ، للإشعارِ ببديع صُنعِ اللّه تعالى إذ جعلَ الصّلصالَ في هذه الصّورةِ الجميلةِ مع كاملِ الأعضاءِ المُعَدّة للعيشِ في هذه الدّنيا.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 241.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/45، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/147، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

فائدةُ العطْفِ في ﴿وَنَفَخۡتُ﴾:

تَسْويةُ خَلْقِ آدمَ هَيَّأتْهُ لنفْخِ الرّوحِ فيه

أفادَ العطفُ في قولِه ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أنَّ حصولَ الجزاء مُعلَّقٌ بحصولِ مجموعِ الأمرَين في الشّرطِ، وأنَّ نفخَ الرّوح فيه مُرتَّبٌ على تسْويتِه، بحيث إنَّ التّسويةَ هيَّأته لنفخِ الرّوح فيه، ليفيدَ أنَّ الجزاءَ في قولِه: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ مُسبَّبٌ على وقوعِ مجموعِ الشّرطِ بحصول تسْويتِه ونفخِ الرّوحِ فيه، لتعظيم شأنِ كلِّ فعْلٍ من هذين الفعلَيْن، والإعلامِ بتشريفِه وتكريمِه إذ نسبَ اللّه تعالى الفعلَيْن لنفسِه.

دَلالةُ الضّميرِ في قولِه ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ﴾:

الـدّلالـةُ على البشرِ بمجموعِ صِفاتِه

في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ يعودُ الضّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ على البشَرِ بما اتّصفَ به؛ أي: فإذا نفختُ من روحي في الّذي خلقْتُه من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ وسَوّيْتُه.

بَلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ﴾:

تَمثيلُ تَحْصيلِ الـرّوحِ في بـدَنِ آدمَ بالنّفْخِ في جِسْمٍ مُجوَّفٍ

النّفْخُ في الحقيقةِ هو إجْراءُ الرّيح في تَجاويفِ جِسْمٍ آخَر[1]، أو هو إخْراجُ الهَواءِ مَضْغوطًا بَيْنَ الشَّفَتَيْنِ مَضْمومَتَيْنِ كالصَّفيرِ[2]، فشُبِّه تعلُّقُ الرّوح ببدنِ آدمَ وجريانِ آثارِه في جوفِ أعضائِه بإجراءِ الرِّيحِ في جسمٍ مجوَّفٍ وجريانِ آثارِ الريحِ فيه، فذكر لفْظَ المُشبَّه به وهو النّفخ، وأرادَ المُشبَّه، وهو تعلُّقُ الرّوح بجسم آدم، ليكونَ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّبعيَّةِ، والنُّكتةُ في استعارةِ لفْظِ النّفخِ هي لِما فيه من معنى الإفاضةِ في التّجويفِ والسَّريانِ فيه، فأفاد سريانَ الرّوحِ في تجاويفِ الشّرايين إلى أعماقِ البَدَنِ، فليس ثمَّةَ نفخٌ ولا منفوخٌ، وإنّما هو تمثيلٌ لوجودِ الرّوحِ في المادَّةِ القابلةِ له، فيحيا بها آدمُ عليه السلام[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/139.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 3/45، والزمخشري، الكشاف: 2/577، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/148.

دَلالةُ الإضافةِ في ﴿رُّوحِى﴾:

إضافةُ الرّوحِ إلى اللهِ تشريفٌ وتكريمٌ لآدمَ ونسْلِه

أضافَ اللّه سُبْحانَهُ الرّوحَ المخلوقةَ إلى نَفْسِه تَشْريفًا وتَكْريمًا، وليَسْرِيَ هذا التَّشريفُ والتّكريمُ إلى بدنِ آدمَ ونسْلِه لمّا جرت فيه، ففي الإضافة تنويهٌ بشأنِ هذا المخلوقِ، وفي الإضافة معنى التّخْصيصِ[1]، وليكونَ كالتّهيئةِ لاستحقاقِ الأمرِ بالسّجودِ له، فالإضافةُ هنا مثلُ (بيت اللّه) و(ناقة اللّه).

دَلالةُ الخبرِ في ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾:

التّفاضُلُ بالأعمالِ والآثارِ لا بحقائقِ العناصِرِ وأصْلِها

في الجُملةِ الخبريَّة إيماءٌ إلَى أنَّ حَقائِقَ العَناصِرِ عِنْدَ اللّه تعالى لا تَتَفاضَلُ إلّا بتَفاضُلِ آثارِها وأعْمالِها، فخلقَ اللّه البشرَ من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ، فكانت تسْويتُه ونفخُ الرّوح فيه تشريفًا وتكريمًا، فأفادَ أنَّ كَراهَةَ الذّاتِ أوِ الرّائِحَةِ إلى حالَةٍ يَكْرَهُها بَعْضُ النّاسِ أوْ كُلُّهم إنّما هو تابِعٌ لِما يُلائِمُ الإدْراكَ الحِسّيَّ أوْ يُنافِرُهُ تَبَعًا لِطِباعِ الأمزِجَةِ أوْ لإلْفِ العادَةِ، ولا يُؤْبَهُ به في عِلْمِ اللّه تعالى، وهذا هو ضابِطُ وصْفِ القَذارَةِ والنَّزاهَةِ عِنْدَ البَشَرِ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بقولِه ﴿فَقَعُواْ﴾:

المُبادرةُ إلى الائتمارِ من شَأْنِ العارِفين باللهِ

عبَّرَ بفعل الأمر ﴿فَقَعُواْ﴾ الذي هو من وقع يقع، دونَ أن يقول (فاسجدوا له) مثلًا، لِما في لفظ (وقع) من معنى الهويِّ إلى موضعٍ أدنى، أي ليكن هويُّكم هويَّ مَن كان في مبادرتِه به وسهولةِ انقيادِه كأنَّه وقع من غيرِ اختيارِه[3].

بَلاغةُ التّقديمِ في ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾:

سُجودُ الملائكةِ لآدمَ سُجودُ تكريمٍ وتَحيَّةٍ لا سجودُ عِبادةٍ

لمّا كان الضّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ يعودُ على البشَرِ بالأوصافِ التي

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 3/45، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/188، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

(3) الراغب، المفردات: (وقع).

ذُكرتْ، بمعنى فقَعوا للذي خلقْتُه من صَلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ وسوّيتُه ونفختُ فيه من روحي أفادَ أنَّ الملائكةَ قد علِموا أنَّه مخلوقٌ مكرَّمٌ فكان تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ على معنى تخْصيصِ السّجودِ له[1]؛ بِما اتَّصفَ به من أوصافِ التّشريفِ والتّكريمِ، ليكونَ السّجودُ سجودَ تكريمٍ وتحيَّةٍ لا سجودَ عبادةٍ، والمعنى فاسجدوا له دونَ غيرِه، فيفيدُ تخْصيصَ آدمَ دونَ غيرِه منَ المخلوقاتِ بهذا النّوعِ منَ السّجود.

فائدةُ مَجيءِ الحالِ في ﴿سَٰجِدِينَ﴾:

سُجودُ الملائكةِ كانَ على وَفْقِ المَعْهودِ عندَنا والمُتَبادِرِ منَ اللّفظِ

لمّا كان الحالُ على معنى تقْييدِ العاملِ واقترانِه بصاحبِ الحالِ أفادَ مجيءُ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تقييدَ الوقوعِ بالسّجودِ؛ لأنّ الوقوعَ يكونُ على أحوالٍ مُتعدّدةٍ، أي فقَعوا له وقوعَ السّاجدين، ليُفيدَ التّعظيمَ، فقيَّدَ الوقوعَ بالهَويّ المُقترنِ بالتّعظيم، ويحتملُ أن يكونَ الهويُّ على معنى الطَّأطأةِ والانحناءِ، أو يكونَ بوضْعِ الجبهةِ لتكونَ في الموضعِ الأدنَى، وهو السّجودُ المعهودُ عندنا والمُتبادِرُ منَ اللّفظِ، وهذا هو الظّاهرُ، فليس المأمورُ به مجرَّدَ الانحناءِ والخضوعِ والتّسليمِ والإشارةِ، والمعنى: اسقُطوا له ساجِدينَ على وجوهِكم تحيَّةً له وتعظيمًا، فلم يكنِ السّجودُ لآدمَ سجودَ عبادةٍ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/420.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/360، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/247، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.